

# في زمن الطاعون يمكن أن يولد الحب

## «لاوروس» للروسي يفغيني فودولازكين.. رحلة اكتشاف تاريخية

في مزيج روائي محبوك بدقة، تمزج رواية «لاوروس» بين ما هو علمي في الطب وبين الخرافات والظواهر الخارقة، حيث ترسم تفاصيل عالم مليء بمرض الطاعون، ومع ذلك يولد فيه الحب، لذا فهي تعيد إلى أذهاننا بطريقة أو بأخرى ما يحدث في العالم اليوم مع انتشار فايروس كورونا المستجد.

ويسأل على لسان أحد شخوصه الذي يصل إلى فلورنسا في الوقت الذي كان فيه كريستوف كولومبوس يكتشف أميركا، إلى أي مدى كانت الحادثتان مرتبطتين معاً، وإذا كانتا مرتبطتين فكيّف؟ والأهم التخمين بأن اكتشاف القارة الجديدة بداية لنهاية للعالم مدوية في الوقت؟

يتحدث فودولازكين أن لاوروس هو المخلص، ويتحدث عن لقبه أرسيني شخصيته الرئيسية، أحد اللقبين هو الروكيني، نسبة إلى بلدة روكينا محل ولادته، والآخر الطبيب. ويحكي عن العلاقة الوثيقة بين كلمة حكيم، وما تشتمل عليه من حكمة وطب معاً، وكلمة حكى بما تشتمل عليه من حكايات، وواقع أن الكلمات تكون أدوية وعلاجات بالنسبة إلى الحكماء والأطباء.

يلفت إلى أنه معروف بأن كلمة حكيم استعملت وما تزال تستعمل مرادفاً للمفردة طبيب، ولكن كلمة حكيم قرابة بالفعل حكى.. ويورد أن مثل هذه القرابة تعني أن الكلمة أتت دوراً مهماً في عملية المعالجة، ويقول بأن الكلمة، كما هي وبمعانيها كلها، وبسبب قلة الأدوية ومحدوديتها، كان لها دور في العصور الوسطى أكثر أهمية مما هو عليه الآن، وكان ينبغي التحدث آنذاك كثيراً.

ويشير إلى أن الأطباء كانوا يحكون، ومع معرفتهم لبعض العقاقير التي تعالج العليل، لكنهم لم يفوتوا فرصة اللجوء إلى مخاطبة المرض مباشرة، وجعلوا يتحدثون مع المرض قائلين عبارات إيقاعية لا معنى لها على ما يبدو، يحاولون بها إقناع المرض بمغادرة جسد المريض المعالج. وينوه إلى أن الخيط الفاصل بين الطبيب والشعور في ذلك الوقت كان نسبياً. وينبه إلى أهمية الحكى بدوره في المعالجة، وأن المرضى كانوا يحكون، وأنه بسبب نقص معدات التشخيص، كان على المرضى أن يصفوا بالتفصيل كل ما حدث في أجسادهم العليلية، وحتى في بعض الأحيان بدا لهم أنه مع الكلمات المغورة بالألم التي تخرج من أفواههم، يخرج منهم المرض شيئاً فشيئاً. ويروي أن إنحاة الفرصة للمرضى ونوحيهم للحديث بالتفصيل عن الأمراض للأطباء، كانت تجعلهم يشعرون بتحسّن حالتهم الصحية، وكانت الشكوى من صعوبة

هيثم حسين  
كاتب سوري

يصور الكاتب الروسي يفغيني فودولازكين في أحداث روايته «لاوروس» فترة اكتشاف كولومبوس لأميركا عام 1492، وهي في الوقت نفسه قصة شاب أضع حبيبته وحاول أن يرتحل بعيداً عن مكانه ليحاول أن يعيش هارباً من ذكرياته معها، باحثاً عن نوع من الطمانينة التي فقدتها بفقدانها.

يقسم فودولازكين، المؤلف في العاصمة الأوكرانية في 21 فبراير 1964، روايته، الصادرة عن منشورات دار المدى، ترجمة تحسين رزاق عزيز في بغداد، إلى أربعة أقسام، يسميها كتاباً، وهي: كتاب المعرفة، كتاب الجحود، كتاب الدرب، كتاب الطمانينة، ويحكي فيها رحلة الطبيب أرسيني من قريته الصغيرة في الريف الروسي إلى أوروبا، وتعرفه إلى جغرافيات عديدة، وثقافات مختلفة أثرت شخصيته وخبرته وحياته.

### عالم جديد

يصف فودولازكين في روايته -التي فازت بجائزة الكتاب الكبير الروسية عام 2013، وهي أكبر جائزة أدبية في روسيا- كيف كان انتشار الوباء مرعباً، وكان الانتقال من نقطة لأخرى مقداً للغاية، وكان الناس يفتقرون إلى الطرق، ولم يمنع عدم وجود الطرق انتشار وباء الطاعون الذي كان يستولي على القرى، مثل جيش العدو، الواحدة تلو الأخرى، ويفتلك بالناس من دون رحمة في المناطق التي يحتلها، ويشير إلى أن الجميع بقوا في أماكنهم، لأنه لم يكن ثمة مكان للهروب إليه من الوباء.

### الروائي يثير أسئلة يسقطها على التاريخ القريب والراهن عن انتشار الوباء في روسيا في زمن اكتشاف قارة جديدة

يثير الروائي أسئلة يسقطها على التاريخ القريب والراهن سواء بسواء، عن انتشار الوباء في روسيا، في الوقت الذي كان يتم فيه اكتشاف قارة جديدة، حيث نهاية العالم المتوقعة حينها في روسيا، وبداية جديدة في مكان بعيد.



فقدان الحب عتمة قاسية (لوحة للفنان إسماعيل الرفاعي)

كريستوفر التي كانت تحتوي الحكمة والمعرفة والعلم. أوستينا التي تهدي إلى كوخ أرسيني، تطلب منه مساعدتها ببعض الطعام، تخبره عن أنها قادمة من مكان موبوء بالطاعون، لكنه يستحضرها على الدخول، لأن البرد قارس، ويتعرف إليها أكثر لاحقاً، بحيث تسد بعضاً من الفراغ الذي أحدثه رحيل جده عنه.

يسرد فودولازكين كيف أن أرسيني بدأ حياة أخرى مليئة بالحب والخوف، الحب لأوستينا والخوف من أنها قد تختفي فجأة كما جاءت فجأة، ويحكي أنه لم يكن يعرف بالضبط ما الذي كان يخاف منه، إحصار أم برق أم نار، أم نظرة حسد شريرة، وحاول إخفاها عن عيون الفضوليين كي لا ينكشف سرهما، ثم يصف كيف أن موت أوستينا خلف تأثيره الكبير على أرسيني الذي لم يستوعب الصدمة، ورحل بعيداً عن الديار.

### بطل الرواية كان يكتب ليس لأنه يخشى أن ينسى بل لأنه يرى أن الكلمة المكتوبة ترتب العالم وتنظمه

للمفاهيم بأن تنظمس، لهذا كان نطاق اهتماماته واسعاً جداً، يتوافق نسبياً مع اتساع العالم.

رحيل كريستوفر أثر على أرسيني بشكل كبير، ويصف أن ما حدث له لم يكن غياب شخص ذاهب إلى المجهول، بل غياب شخص يردد في مكان قريب، وكان أرسيني يدرك أن كريستوفر قريب منه، والشئ الوحيد الذي ساعده على تجاوز الليالي الموحشة هو قراءة رسائل

مقصود ومدروس بالتفصيل الدقيق، ويحدثه عن مهام الأعضاء وخواصها المتفردة، وحسين يسأله أرسيني عن الروح، يجيبه بأنها ما ينفخه الله في الجسم، وإنها تجعلنا أحياء، ويشبهها له باللهب المنبعث من الشمعة، لكن ليس لها طبيعة دنيوية، وتسعى إلى الارتقاء لتلائم العناصر الطبيعية.

يطلب كريستوفر من أرسيني أن يبكي ويصلي، وألا يخاف من الموت، لأن الموت ليس مجرد فراق مرير، إنه كذلك فرحة التحرر والعتيق، ويذكر له أن كل واحد منا يكرر طريق آدم وعندما يفقد البراءة يدرك أنه فان.

يشدد فودولازكين على دور الكلمة المكتوبة، من خلال تركيز بطله على الكتابة، وأنه كان يكتب ليس لأنه يخشى أن ينسى شيئاً ما، لكنه كان يرى أن الكلمة المكتوبة ترتب العالم وتنظمه، وتوقف عدم استقراره، ولا تسمح

يعود للحديث عن كريستوفر، وهو جد أرسيني، الذي كان معالجا وطبيباً، ولم تقتصر مساعده للناس على الطب، فقد كان مقتنعاً بأن التأثير الخفي للأعشاب يمتد إلى جميع مجالات الحياة البشرية، وكان يحذر الناس من ألا يفخروا أكثر من اللازم، وأن الفخر ليس أصل كل خطيئة.

يصف كيف أن كريستوفر بدأ يعلم الصبي في سن مبكرة أمور الأعشاب، وكانا يجولان معاً في الغابات ويجمعان الأعشاب المختلفة، ويطلع أرسيني على خصائصها السحرية، وكيف يمكن أن تساهم في معالجة المرضى. ويحكي كذلك عن مصادقة أرسيني لذئب في الغابة، وقدرته على ترويضه بطريقة غريبة ومن دون أي جهد.

يكون كريستوفر المعلم الذي لا يبخل على تلميذه أرسيني بالحكمة والمعرفة والعلم، يخبره أن حكمة الله التي لا حد لها تنعكس في جسم الإنسان الصغير، كما تنعكس الشمس في قطرة ماء. ويستطرد بالقول إن كل عضو فيه



### تسعير حياة البشر

ما ثمن حياة ما؟ هذه ليست استعارة بل تعبير يحيل على أسئلة في صميم التصور السياسي في الغرب. ثمن حياة يوافق معادلة المادي، مالياً أو مصالح اقتصادية أو سياسية أو عزوات عسكرية، كل شيء يباع ويشترى.

«تسعيرة حياة» للباحث آريل كولونوموس يصف بدقة المعادلات المادية للحياة البشرية، سواء أكانت العملية عادلة أم مجحفة، ووضع ذلك موضع مساهمة فيه تشجيع على المحافظة على الأرواح، وفيه أيضاً لجوء إلى توافق باهظ. فان تكون حيوات البشر متساوية في الحقوق لا يعني أن وسائل إنقاذها أو حمايتها متماثلة أو ينبغي أن تكون كذلك.

والصراع على أشده بين المتطلبات الإنسانية والإغاسات المادية، لاسيما في هذه المرحلة: عم نخلى لإنقاذ الأرواح أو حمايتها، وكم نسا يلزم كي نكسب حربياً؟

### تناغم العلم والأدب والفلسفة

كارلو روفيلي، الأستاذ بجامعة مارسيليا، يجمع بين علم الفيزياء والفلسفة والإنسانيات. جديده بعد «نظام الزمن»، و«حقول» وخاصة «سبعة دروس موجزة في الفيزياء» الذي حقق نجاحاً عالمياً، كتاب بعنوان «كتابات متسكعة» يتساءل فيه عن العالم الذي يحيط بنا، وطبيعة الزمن الذي يمر، علاوة على الأسئلة الفلسفية ذات الأجوبة غير المؤكدة.

يضم الكتاب مجموعة من المقالات يتنقل فيها من لوليتا لنابوكوف، والمخدرات، والأسفار في القارة الأفريقية، إلى الإلحاد والخيمياء عند نيوتن، ومن الفلسفة التحليلية إلى أخطاء أينشتاين، فيلمس القارئ نظرة الكاتب الشمولية، التي يهتم من خلالها بكل ما يؤثّر هذا العصر، ويحاول أن يبين ما تنطوي عليه من تناقض يتجاوز العلم فيه والأدب والفلسفة بشكل متناغم، ما يعطي انطبعا بان عناصر الكون يكمل بعضها بعضاً.

### الإنسان في عيون كاتب راصد

«كاتب راصد» للفرنسي بيير باشي (1937 - 2016) يضم أهم مؤلفاته: أمي، الحب أيام زمان، بلا حب، العمر المتقدم، وداعا، سيردانية أبي، محادثة في

جاسسي، غياوة الذكاء، والمعروف أن باشي كاتب جامع، فهو مؤلف ومترجم وناقد وكاتب مقالات تحليلية، رصد كل ما يخص التجربة الإنسانية، فاهتم بالأدب الفرنسي اهتمامه بأدب شرق أوروبا من كافكا إلى سولجينتسين، وكتب في التاريخ والسياسة، ولكن هذا الكتاب خصص لمؤلفاته التي اعتنت بكل ما هو محميم، وكان صور فيها بأسلوب أنيق عده مناوئوه أقرباؤه وأحبابه، بالنخبوي، مثلما صور أولئك الذين همشتهم الحياة الحديثة، غايته رصد دواخل الفرد في شتى ظروفه الاجتماعية، فقد كان «حساساً بواجبنا كفراد في أن تكون من نكون» بعبارة إيمانويل كارير مقدم الكتاب.

